مطالعة في تفخيم العين والحاء
بين القديم والحديث

أ. د. أحمد محمّد قدُّور(*)

يتطلّب النهوض بعلم الأصوات عندنا التعمّق في المعطيات الصوتية المبثوثة في كتب النحو والتجويد والقراءات، وكتب البلاغة، وبعض مؤلفات الحكماء. كما يتطلّب الوقوف على النتائج التي أحرزها هذا العلم في البلدان الأجنبية التي استعانت بالأجهزة المتعدّدة ممّا لم يكن متوفّرًا من قبل إبّان نشوء الدرس الصوتي العربي وازدهاره. وقد تأكّد لي من خلال دراسات سابقة أنّ درس القدامى للأصوات على قدر كبير من الأصالة والابتكار. كما أنّ بعض المحدثين من علماء اللغة من الأجانب، ومؤرّخيها، والمشتغلين باللسانيات وقفوا عند هذا الدرس، ورأوا قربه الشديد من الدرس الحديث، إذ توفّر له من الملاحظة والتفكير العلمي ما يبعث على الإعجاب، مع أنه اعتمد أصلًا على وسائل البحث التي تفتقر إلى الأجهزة التي رفدت الدرس الحديث، ووصلت به إلى مصافّ العلوم التجريبية. ويقول أرتور شاده عن جهود سيبويه الصوتية: «بلغ سيبويه في

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد إلى مجلة المجمع في ١٥/ ١٢/ ٢٠٢١م

تعيين مواضع الحروف ومخارجها من الصحة والدّقّة ما يعسر علينا الزيادة عليه، والإصلاح فيه»[١].

وتأتي هذه المطالعة في هذا السياق العلمي الذي يعرض للمعلومات الصوتية في ضوء الدرس الحديث سعيًا لإدراك الفروق، وكشف مواطن الاختلاف، وتقديم النتائج التي تتّخذ سبيلها إلى إفادة علومنا اللغوية الفذّة. ومن المؤكد أنّ موضوع هذه المطالعة جزء من بحث الحروف الحلقية والحنجرية التي تحتاج إلى مزيد من الفحص الدقيق. إذ «يصعب جدًّا بحث السواكن (الصوامت) الحلقية والحنجرية، لأنه لا يسهل ضبط مواقعها وصفاتها النطقية الكائنة في المناطق الحلقية والحنجرية التي لا يسهل الوصول إليها.. ومن الصعب جدًّا أن تُرى حركات عضلات الحلق، لأنه لا يظهر منها إلا عضلات الحائط الحلقي»[٢]. وقد نظر الدرس الحديث في الحروف الحلقية كما وصفها الخليل (ت١٧٥هـ) وسيبويه (ت١٨٠هـ) ومن تبعهما من النحاة وعلماء التجويد. إذ استقرّ الأمر على أنّ حروف الحلق لها ثلاثة مخارج، أقصى، وأوسط، وأدنى؛ فالهمزة والهاء من أقصى الحلق، والعين والحاء من أوسط الحلق، والغين والخاء من أدنى الحلق إلى الفم[٣]. وقد أخرج الدرس الحديث الهمزة والهاء من الحروف الحلقية، ووضعهما في الحنجرة. أما الغين والخاء فقد ذهب المحدثون في تعيين

(١) علم الأصوات عند سيبويه لأرتور شاده، ص٢ من البحث، وانظر: التطور النحوي لبرجشتراسر، ص١٣، ودروس في علم الأصوات العربية لكانتينو، ص٣٢.

(٢) التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) لسلمان حسن العاني، ترجمة ياسر الملاح، ص٩٣.

(٣) كتاب العين للخليل، ١/ ٥٢،٥٧،٥٨، وكتاب سيبويه، ٤/ ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب لابن جني، ١/ ٤٦-٤٧.

مخرجهما مذاهب شتى، غير أنّ أكثرها شيوعًا هو الذي يعدّهما طبقيين يشاركان الكاف في المخرج، ويليان القاف مباشرة. وذهب بعض المحدثين إلى عدّهما لهويين يشتركان مع القاف في مخرج واحد(٤)، وقلّ من هؤلاء من أبقى عليهما في المخرج الحلقي(٥). لكنّ المحدثين أجمعوا على إبقاء العين والحاء في مخرجهما الحلقي، وأضافوا إلى عناصر التفخيم معلومات جديدة، ستكون موضع درس في هذه المطالعة.

١- استعلاء العين والحاء:

وقف القدامى على صفة الاستعلاء حين حديثهم عن موانع الإمالة، يظهر ذلك عند إمام النحاة سيبويه الذي عدّد حروف الاستعلاء حين حديثه عن الإمالة(٦). ثم اتخذت هذه الصفة سبيلها إلى درس الصفات لدى التالين من النحاة وعلماء التجويد، مع بقائها مذكورة في بحث الإمالة لدى هؤلاء. وحروف الاستعلاء حروف استعلت إلى الحنك الأعلى. فمعنى الاستعلاء أن تتصعّد في الحنك الأعلى(٧)، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق. وأما

(٤) وجهة نظر جديدة في مخرج الأصوات الستة" لغانم قدوري الحمد، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (العدد ٧٧ لعام ٢٠١٠)، ص٣٣، والأصوات في رواية حفص عن عاصم لأحمد مصطفى أبو الخير، ص ٣٨-٣٩، وأصوات اللغة لعبد الرحمن أيوب، ص٢١٣-٢١٥، والتشكيل الصوتي لسلمان العاني، ص٤٩، ٥٧-٥٨، والتصريف العربي للطيب البكوش، ص٣٩.

(٥) الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص٨٨-٨٩، والوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي، ص١٩٥، ١٩٦.

(٦) الكتاب لسيبويه ٤/ ١٢٨-١٢٩.

(٧) ذكر (التصعّد) سيبويه في الكتاب،٤/ ١٣٠، وابن جني في سرّ الصناعة، ١/ ٦٢، وابن يعيش في شرح المفصل، ١/ ١٢٩، والقرطبي في الموضح، ص٩١، والعطار في التمهيد، ص٢٨١.

الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها. ومن معاني الاستعلاء ارتفاع اللسان بإطباق وعدم إطباق[٨]. والانخفاض أو الاستفالة انخفاض اللسان وعدم ارتفاعه. وهذه الحروف المستعلية السبعة (الطاء والظاء والضاد والصاد، وهي حروف الإطباق، والقاف والغين والخاء، وهي المستعلية فقط) تمنع الإمالة كما تقدّم.

وذكر بعض القدامى أنّ معنى الاستعلاء هو أنّ الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك، فينطبق الصوت مستعليًا بالريح مع طائفة من اللسان مع الحنك مع حروف الإطباق المذكورة، ولا ينطبق مع الخاء والغين والقاف، إنما يستعلي الصوت غير منطبق بالحنك[٩]. وهناك من ذكر أنّ الإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقًا له، فينحصر الصوت فيما بين اللسان والحنك إلى مواضعهن[١٠]. ونصّ المرعشي (ت١١٥٠هـ) على أن المعتبر في الاستعلاء استعلاء أقصى اللسان سواء استعلى معه بقية اللسان أو لا، وحروف وسط اللسان - وهي الجيم والشين والياء - لا يستعلي بها إلا وسط اللسان، والكاف لا يستعلي بها إلا ما بين أقصى اللسان ووسطه، فلم تعدّ هذه الأربعة من المستعلية، وإن وجد استعلاء اللسان، لأنّ استعلاءه في هذه الأربعة ليس مثل استعلائه بالحرف المستعلي[١١].

وهكذا يتبيّن لنا أنّ المعتبر في الاستعلاء لديهم هو أقصى اللسان، وليس

(٨) ذكر (ارتفاع اللسان) نصًّا الزمخشري في المفصل، ١٠/ ١٢٨، والأستراباذي في شرح الشافية، ٣/ ٢٦٢، والخضر اليزدي في شرح الشافية، ٢/ ١٠٠٣، وذكر (يعلو اللسان) القرطبي في الموضح، ص٩١.

(٩) الرعاية لمكي، ص٩٩، ومرشد القارئ لابن الطحان، ص٣٦، والموضح للقرطبي، ص٩١.

(١٠) الموضح للقرطبي، ص٩٠، والتمهيد للعطار، ص٢٨١.

(١١) جهد المقلّ للمرعشي، ص١٥١- ١٥٢.

ظهر اللسان، أو اللسان بكامله. وتعدّ كلمة المرعشي مهمّة جدًّا في تطوّر النظر في موضوع الاستعلاء، وفهم عناصر التفخيم، كما سيرد لاحقًا.

ومن حديث الإمالة أنّ الأستراباذي (رضي الدين ت٦٨٨هـ) لخّص مذاهب القرّاء في إمالة ما قبل هاء التأنيث، فقال: «إن المرويّ عن الكسائي (ت١٨٩هـ) إمالة ما قبل هاء التأنيث مطلقًا، سواء كان من حروف الاستعلاء أو لا، إلا إذا كان ألفًا كالصلاة. واختار أهل الأداء طريقًا آخر، وهو إمالة ما قبل الهاء، إلا إذا كان أحد الحروف العشرة، وهي قولك «حق ضغاط عص خظا» كالنطيحة والحاقة وقبضة وبالغة والصلاة وبسطة والقارعة وخصاصة والصاخة والموعظة. وذلك لأنّ «قظ خص ضغط» - حروف الاستعلاء السبعة- من هذه العشرة حروف الاستعلاء، والحاء والعين شبّهتا بالخاء والغين لكونهما حلقيين مثلهما[١٢]. وذكر مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) في كتابه (الكشف عن وجوه القراءات) اختيار القراء في الإمالة «فأما علة فتح ما قبل هاء التأنيث في اختيار ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) إذا كان قبل الهاء حرف من حروف الاستعلاء، أو عين أو حاء، فإنّ هذه الحروف حروف مستعلية في الحنك ومنها حرف (حروف) الإطباق ينطبق اللسان بالحنك مستعليًا عند حروفها، فكره ابن مجاهد أن ينحى بهذه الحروف نحو الكسرة بعد استعلائها وتصعّدها بالحنك»[١٣]. وذكر المهدوي (أحمد بن عمار توفي نحو سنة ٤٤٠هـ) في شرح الهداية وجه الاستعلاء في العين

(١٢) شرح الشافية لرضي الدين الأستراباذي،٣/ ٢٥. وانظر: "إمالة ما قبل هاء التأنيث في قراءة الإمام الكسائي، نظرات جديدة في ضوء علم الأصوات الحديث" لطارق محمود سلمان خوالدة، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، د.ت.

(١٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي القيسي، ١/ ٢٦١-٢٦٢.

والحاء في حديثه عن مذهب الكسائي في الوقف على هاء التأنيث بإمالة الفتحة قبلها، وأن الحاء والعين مع حروف الاستعلاء تمنع الإمالة. «والعين والحاء إنّما منعتا من الإمالة لقربهما من حروف الاستعلاء، لأنهما أقرب حروف الحلق إلى حروف الاستعلاء، فجُعل لهما حُكم حروف الاستعلاء، وأيضًا فإنهما مشاركتان للألف في الحلق»(١٤). وجاء لدى ابن أبي مريم (نصر بن علي بن محمد المتوفى بعد ٥٦٥هـ) في حديثه عن حروف الاستعلاء السبعة، أنّ أهل المدينة ألحقوا العين والحاء بالحروف المستعلية، فصارت الحروف عندهم تسعة(١٥).

كما عرض مكي إلى أنهم - القرّاء - اختاروا الفتح فيما قبل هاء التأنيث إذا كان همزة أو هاء قبلها فتحة أو ضمة، أو ساكن غير الياء ليس قبلها كسرة، نحو «سفاهة والنشأة ومحشورة وبررة». كلّ هذا الاختيار فيه الفتح، وعلّة ذلك أنّ الهمزة والهاء من حروف الحلق، وحروف الحلق بعيدة عن الكسر لبعدها من الياء، قوية في الفتح، لقربها من الألف. وكذلك الحاء والعين فيما ذكرنا أولًا، فلما كانت كذلك قوي الفتح، وبَعُدَ الكسر، فتركت فتحتها، واختير ذلك فيها.. وكذلك اختيار القرّاء الفتح مع الراء، إذا انفتح ما قبلها، لأن الراء حرف تكرير، الفتحة عليه قوية، كأنها فتحتان. وقد أضاف قوم امتناع الإمالة مع الكاف، لقربها من القاف(١٦).

وشرح المالقي (عبد الواحد بن محمد ت ٧٠٥هـ)، وابن الجزري (محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ) مذاهب القرّاء في إمالة هاء التأنيث، وما قبلها

(١٤) شرح الهداية للمهدوي، ١/ ١٢٠-١٢١.

(١٥) الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم، ١/ ١٧٤.

(١٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي القيسي،١/ ٢٦١-٢٦٢.

في الوقف «فقد أمالها بعض العرب، كما أمالوا الألف. وقيل للكسائي إنك تميل ما قبل هاء التأنيث، فقال: هذا طباع العربية. وحكى ذلك عنهم الأخفش سعيد بن مسعدة (ت٢١٥هـ)، كما حكاها سيبويه عن العرب. وتأتي على ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول متّفق على إمالته قبل هاء التأنيث، وما أشبهها، وهو خمسة عشر حرفًا يجمعها قولك «فجثت زينب لذود شمس».

والقسم الثاني الذي يوقف عليه بالفتح إذا كان قبل الهاء حرف من عشرة أحرف، وهي «حاع»، وأحرف الاستعلاء السبعة «قظ خص ضغط»، إلا أنّ الفتح عند الألف إجماع، وعند التسعة الباقية – من حروف الاستعلاء – على المختار.

أما القسم الثالث فيمال في حال ويفتح في أخرى، وذلك إذا كان قبل الهاء حرف من أربعة أحرف، وهي «أكهر»[١٧]. وهناك شرح لهذه الحروف الأربعة، منها ما ورد لدى المهدوي والمالقي. من ذلك أنه إنّما اعتُبر ما قبلهنَّ فجعلن يمنعن من الإمالة إذا سلمن من أن تكون قبلهن الكسرة والياء. وأمّا الهمزة فلأنها من مخرج الألف، فأشبهت الألف. وأمّا الكاف فهي قريبة من مخرج القاف، والقاف حرف استعلاء، فجعل لها حكم قريب من حكم القاف. وأما الهاء فهي شبيهة بالألف، فعملت عمل الألف. وأما الراء فإنها حرف مكرّر قبل هاء التأنيث، ولا تقع إلا مفتوحة، والفتح يتكرّر

(١٧) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ٢/ ٦٢-٦٦ (ط. دار الكتب العلمية)، وانظر تفصيلًا للكلام نفسه في الدرّ النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير للمالقي المتوفى سنة ٧٠٥ للهجرة. وجاء فيه أن هذا التقسيم اختاره الحافظ الداني ومكي وابن شريح منقولًا من ابن مجاهد، انظر: ص٤٦٢- ٤٩٨ من قسم التحقيق.

فيها بتكرّرها فمنعت الإمالة[١٨]. وهكذا تصبح كلّ حروف الحلق (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) مانعة من الإمالة لشبهها بحروف الاستعلاء وقربها من الألف. وكذلك الكاف، فقربها من القاف سوّغ إلحاقها بما تقدّم من حروف. والراء أيضًا، فالراء لها اختصاص في منع الإمالة بسبب ما فيها من قوّة التكرار. ولسيبويه كلمة جامعة في هذا الشأن: «والراء إذا تكلّمت بها خرجت كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحًا. فلما كانت الراء كذلك قالوا: هذا راشد، وهذا فراش، فلم يميلوا، لأنهم كانوا قد تكلّموا براءين مفتوحتين. فلما كانت كذلك قويت على نصب الألفات، وصارت بمنزلة القاف...»[١٩].

وهناك إشارة مهمّة إلى أثر العين والحاء في التفخيم، فقد نقل المرعشي عن مصادر التجويد تحذير القارئ من أن يسبق لسانه إلى تفخيم الألف إذا وقعت بعد العين، نحو كلمة «العالمين»، فالواجب تلطيف العين وترقيق الألف. وبعض الناس يفخّمونه وهو خطأ، كما يقول. وكذلك إذا أتى بعد الحاء ألف وجبت المحافظة على ترقيقها، نحو قوله تعالى: ﴿حٰمٓ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ وشبهه[٢٠]. وما ذلك إلا لما تحمله العين والحاء من أثر الاستعلاء المولّد للتفخيم. وذكر الدكتور غانم قدوري الحمد أنّ بعض العلماء أضاف إلى الحروف المستعلية الحاء والعين، كما ورد قول بعضهم: ومنهم من ألحق العين والحاء بالمستعلية من القرّاء دون النحاة. ونقل

(١٨) شرح الهداية المهدوي، ١/ ١٢١-١٢٢، والدرّ النثير للمالقي، ص٤٩١ وما يليها، وانظر: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٦٣-٦٦.

(١٩) الكتاب لسيبويه، ٤/ ١٣٦.

(٢٠) جهد المقل للمرعشي، ص٢٩٢، ٢٩٤.

عن الأهوازي (ت٤٤٦هـ) أنّ «الحروف الموانع تسعة: الحاء والخاء والعين والغين والصاد والضاد والطاء والظاء والقاف. وأضاف أنه لمّا كانت جميع حروف الاستعلاء من المانعة للإمالة فربّما ألحق بعضهم الحاء والعين لمشاركتهما حروف الاستعلاء في أنها تمنع الإمالة. ويعلّق الحمد على ذلك بقوله: ولكن تعريف الحروف المستعلية لا ينطبق على العين والحاء، إذ ليس للّسان دور في إنتاجهما، ولأنّ أقصى اللسان لا يستعلي معهما نحو الحنك[٢١]. وسنرى أن استعلاء أقصى اللسان وحده ليس شرطًا وحيدًا لتوليد التفخيم.

ونقل الدكتور عبد البديع النيرباني من مصادر القراءات أنّ بعضهم أضاف الحاء والعين إلى حروف الاستعلاء، فصارت تسعة، كذلك أُضيفت الألف فأصبحت عشرة. وأما الحاء والعين فلِمشاركتهما الألف في الحلق، وهما يفتحان عين (يفعَل)، والماضي (فَعَلَ) إذا كانتا لامًا من الفعل، نحو: ذبحَ يذبَح، ويفتحان أنفسهما إذا كانتا عينًا، نحو فعَل يفعَل، ورحَل يرحَل[٢٢]. كما نقل خبر قراءة الكسائي بإمالة الفتحة قبل هاء التأنيث في الوقف لشبهها بألف التأنيث لفظًا ومعنى، فإذا وصل فتح، لأنها تعود تاء، ولا شبه بينها وبين الألف، وروي عن العرب: أخذت أخذه، وضربت ضربه (بالإمالة)[٢٣]. فلمّا تمكّن الشبه في الوقف بالسكون أجراها الكسائي

(٢١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم الحمد، ص٢٩١-٢٩٢، وأصحاب الإمالة من القراء هم أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت١٥٦هـ)، والكسائي (ت١٨٩هـ)، وورش (عثمان بن سعيد ت١٩٧هـ). انظر: الدرّ النثير والعذب النمير، ص٣٩٠.

(٢٢) الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات لعبد البديع النيرباني، ص٧١، وشرح الهداية المهدوي، ١/ ١٢٠-١٢١.

(٢٣) الكتاب لسيبويه، ٤/ ١٤٠.

مجرى الألف في الوقف خاصة، فأمال ما قبلها من الفتح، فقرّبه من الكسر، كما يفعل بألف التأنيث.. فإن وصل فتح لأنها تصير تاء[٢٤].

وهكذا يتبيّن أنّ هناك اتجاهًا لدى بعض القرّاء ومصنّفي القراءات لجعل العين والحاء ملحقة بحروف الاستعلاء السبعة، لِما لُوحظ فيهما من أثر للتفخيم، وأنّ هناك مِن هؤلاء مَن ألحق الهمزة والهاء بها، وجعلها جميعًا من موانع الإمالة، إضافة إلى الألف التي أجمعوا على منع الإمالة عندها في هاء التأنيث. كذلك أضاف هؤلاء الراء والكاف، كما تقدّم.

٣- التفخيم بين الاستعلاء والتحليق:

التفخيم وصف لوقع خاصّ على السمع، أي وقع غليظ أو سمين أو فخم. وحروفه هي حروف الإطباق والاستعلاء، ثم الراء واللام في بعض حالاتهما الخاصة. ومن خصائص الحروف المفخمة الأساسية أنها تمنع الإمالة بجوارها، أي تمنع جنوح الفتحة إلى الكسرة[٢٥]. فالتفخيم انحصار الصوت بين اللسان والحنك، وهو نظير الاستعلاء والإطباق، والفرق بين الاستعلاء والإطباق، وبين الترقيق والتفخيم أنّ الاستعلاء يلزم حروفه، فلا يزول عنها، وكذلك الإطباق -فهي دائما مفخمة- بخلاف الترقيق والتغليظ، فإنهما يتعاقبان على الراء واللام كالإمالة والتفخيم في الألف[٢٦]. ووصف ابن الجزري حروف الإطباق والاستعلاء بأنها حروف التفخيم على الصواب[٢٧]. فالتفخيم والإطباق والاستعلاء من واد واحد[٢٨]. ويدلّ هذا

(٢٤) الجوانب الصوتية للنيرباني، ص١٩٤-١٩٥.

(٢٥) دروس في علم أصوات العربية لكانتينو، وقارن بمرشد القارئ لابن الطحان، ص٥٥-٥٦.

(٢٦) الموضح في التجويد للقرطبي، ص١١٠.

(٢٧) النشر لابن الجزري، ١/ ٢٠٢-٢٠٣ (ط.المكتبة التجارية الكبرى بمصر).

(٢٨) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم الحمد، ص٢٩٣. واصطلح القرّاء على =

على أنّ الحاء والعين تُعدّان مفخّمتين لإلحاقهما بحروف الاستعلاء المفخّمة حكمًا. لكنّ كانتينو يرى أنّ هذين الحرفين لم يكونا في العربية الفصحى مفخّمين، ولا من الحروف التي تمنع إمالة الفتحة المجاورة لها. أما في العربية الدارجة فيجب التمييز بين اللهجات التي الحاء والعين فيهما مفخّمان في الأصل وتمنعان الإمالة، وبين اللهجات التي يجوز فيها تفخيم الحاء والعين أو ترقيقهما، وذلك حسب الجوار الصوتي. واستشهد بكلمات فيها عين أو حاء مفتوحتان قبل هاء التأنيث في الوقف[٢٩]. ويبدو أنّ كانتينو لم يطّلع على مذاهب القرّاء والنحاة في إمالة ما قبل هاء التأنيث. والإمالة فيها، ومنعها من كلام العرب، كما تقدّم، وكلّ يعضّده السماع.

وقد ظهر في الدرس الحديث تدقيق في الحركات المولِّدة للتفخيم. فقد لاحظ عدد من الباحثين المحدثين أنّ للحلق وما يحدث فيه أثرًا مهمًّا في هذا الصدد. فبرجشتراسر يرى أنّ الاستعلاء رفع لأقصى اللسان نحو ما يليه من الحنك. ويزاد على ذلك تقلّص ما في الحلق وأقصى الفم[٣٠]. ويرى كانتينو أنّ انقباض عضلات وسط الحلق أدخل في الحلق عند التفخيم منه عند الترقيق. كما عدّ كانتينو الحاء والعين من الحروف الأدنى حلقية، أي التي تقرع بتضييق أدنى الحلق، وبانقباض جداره[٣١]. ويرى يوسف غازي أنّ الطنين – في العربية – يأتي في آخر الفم عامة، أي في الحنجرة والبلعوم، وهو أمر يؤدي إليه ما يعرف بالتفخيم (Emphase)[٣٢]

= إطلاق التفخيم أيضًا في الراءات، والتغليظ في اللّامات. انظر النشر، ٢/ ٦٨، ٨٣.

(٢٩) دروس في علم أصوات العربية لكانتينو، ص١١٧ – ١١٨.

(٣٠) التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر، ص٢٦.

(٣١) دروس في علم أصوات العربية لكانتينو، ص١١٨.

(٣٢) مدخل إلى الألسنية ليوسف غازي، ص١٣٥.

وفي أساسيات علم الكلام أنّ الأصوات الحلقية تحدث بتضييق في جدران الحلق بسبب تراجع اللسان وارتفاعه قليلًا في الحلق[٣٣]. أما عبد العزيز حليلي فيرى أنّ الإطباق من حيث النطق هو تحرّك بعض أعضاء جهاز النطق نحو الحلق، وارتفاع مؤخرة اللسان ممّا يؤدي إلى اتساع الحجرة الرنانة داخل الفم[٣٤].

والخلاصة أنّ نطق العين والحاء يكون مصحوبًا بانقباض في الحلق، وذلك باقتراب مؤخرة اللسان (أي أقصاه) من الجدار الخلفي للحلق نتيجة لتراجع اللسان بصفة عامة، ويولّد هذا النطق ظاهرة التحليق (phariyngealizuation)[٣٥].

ويميّز العلاقة الدكتور تمام حسّان بين الطبقية والإطباق. فالطبقية تدلّ على النطق في مخرج الطبق (كالخاء والغين وتلحق بهما القاف). أما الإطباق، أو ما يسمّى في علم الأصوات (velarization)، فيدلّ على ارتفاع مؤخر اللسان باتجاه الطبق بحيث لا يتصل به، على حين يجري النطق في مخرج آخر غير الطبق، كنطق الصاد والضاد والطاء والظاء، وهي حروف الإطباق لدى القدامى. وقد عبّر النحاة والقرّاء الأقدمون عن الطبقية والإطباق كليهما باصطلاح الاستعلاء، وقصدوا بذلك علوّ مؤخر اللسان في اتجاه الطبق سواء اتّصل به، كما في الطبقية، أم لم يتصل كما في الإطباق. وكلا الإطباق والطبقية ينتج بعض القيمة التفخيمية. ولكنّ التفخيم لا يتمّ إلا إذا انضمّ التحليق إلى

(٣٣) أساسيات علم الكلام لبوردن وهاريس، ص٢٤١، والكلام للمترجم محيي الدين حميدي.

(٣٤) اللسانيات العامة واللسانيات العربية لعبد العزيز حليلي، ص٦٤.

(٣٥) الأصوات ووظائفها لمحمد منصف القماطي، ص٧٣، ومعجم علم اللغة النظري لمحمد علي الخولي ذكر أنّ (pharyngealization) يعادل التحليق أو التفخيم. وهو نطق الصوت مصحوبًا بتضييق في البلعوم ممّا ينشأ عنه تفخيمه. انظر ص٢٠٨.

الإطباق أو الطبقية، والتحليق يدلّ على سحب اللسان إلى الخلف في نقطة معينة، وهو غير النطق الخلفي الذي توصف به العين والحاء. ويؤكد تمام حسّان أنّ الإطباق ليس السبب الأول والأخير في ظاهرة التفخيم، بل هو أحد عنصري هذه الظاهرة. أما العنصر الآخر – كما تقدّم – من عناصر التفخيم فهو التحليق. فالتفخيم إذن ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات عضوية تغيّر من شكل حجرات الرنين بالقدر الذي يعطي الصوت هذه القيمة الصوتية المفخمة(٣٦). ولم يتعرّض للكاف التي صنّفها في المخرج الطبقي بخصوص استعلائها وتفخيمها المتوقّعين من إدراجها في المخرج الطبقي بحسب التصنيف الذي اقترحه. كما لم يعرض لتفخيم العين والحاء اللتين تقتربان من التحليق كما يُفهم مِن كلامه بخصوص ذلك.

ويرى محمد منصف القماطي أنّ الحاء والعين تكاد تنفرد بهما اللغة العربية، وإن كانا صوتين فطريين. فكثير من الناس يشوب أصواتهم إشباع بالحاء أو العين، وهو ما يُعرف لغويًّا بظاهرة التحليق. ويحيل إلى هارتمان (Hartmann)(٣٧). ودرس سلمان العاني أصوات العربية الفصحى في العصر الحديث، وبيّنت رسوم صور الأشعة ارتفاع أقصى اللسان ووسطه باتجاه الحنك الأعلى، أي الطبق، في نطق الحاء والعين. وأن الحاء أقرب إلى مقدّم

(٣٦) مناهج البحث في اللغة لتمام حسّان، ص١١٥-١٢٥ ويقول: الطبقيات من أصوات الاستعلاء التي اعترف بها العرب، أي التي يتمّ نطقها في الطبق هي أصوات الخاء والغين والقاف مع توسّع في مدلول الطبق في حالة القاف حتى يشمل اللهاة باعتبارها قصوى أجزائه. انظر مناهج البحث، ص١٢١. ثم وصف الكاف بأنه صوت طبقي شديد مهموس مرقّق يتمّ نطقه برفع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق. انظر، ص١٢٣ – ١٢٤.

(٣٧) الأصوات ووظائفها لمحمد منصف القماطي، ص٧٣، وكتاب هارتمان هو معجم اللغة واللسانيات (بالإنجليزية). انظر: المراجع الأوربية في كتاب القماطي، ص٢٣٢.

الفم من العين غالبًا. وأنّ الحاء المفتوحة ترتفع باتجاه وسط الحنك زيادة على العين المفتوحة مع قرب العين من جدار الحلق أكثر من الحاء[٣٨]. وانتهى العاني إلى ملاحظة حاسمة في هذا السياق، هي «أنّ المصطلح الذي شاع استخدامه بين اللغويين دلالة على التفخيم هو الإطباق (velarization). ولكن يتّضح بعد فحص هذه المجموعة المسماة بالساكنات (الصوامت) المطبقة أكوستيكيًّا وفسيولوجيًّا أنّ المنطقة المنشغلة بإحداثها ليست الطبق فقط، لكنها منطقة الحلق. وعلى هذا يبدو أنّ وصفها بالأصوات الحلقية (pharyngealized) أنسب من وصفها بالأصوات المطبقة (velarized). وهذا الكلام مبني على التحليل المخبري الذي دلّت صوره على أنّ الصوامت المفخّمة يرتفع معها أقصى اللسان ويتراجع باتجاه الحلق كثيرًا[٣٩]. وتشير هذه الآراء إلى أنّ ظاهرة التحليق تتقدّم على الإطباق في توليد التفخيم، وأنّ الحاء والعين تقتربان مِن التحليق، زيادة على مخرجهما الحلقي، وما فيه من تقلّص ما في الحلق وأقصى الفم، وانقباض لعضلات وسط الحلق أشدّ عند التفخيم منه عند الترقيق. وقد تقدّم الكثير من الرأي الفاحص لحركات الحلق في أثناء الإطباق والاستعلاء المولّدين للتفخيم.

ونخلص ممّا تقدّم إلى أن إلحاق العين والحاء بحروف الاستعلاء لدى بعض القرّاء ومصنّفي التجويد له سنده الواضح ممّا استجدّ في الدرس الصوتي حديثًا نتيجة استعمال التقانات المختلفة في مخابر الأصوات الأجنبية. ويدلّ اتجاه قدامى العلماء في درس موانع الإمالة على تعمّق لكلام العرب، واستناد إلى السليقة. ولذلك نقترح على أهل الذكر من أصحاب الاختصاص أن يعتدّوا

(٣٨) التشكيل الصوتي في اللغة العربية لسلمان العاني، ص١٠٩-١١١.

(٣٩) المرجع السابق، ص٧١، ٨٨-٨٩.

في موانع الإمالة رأي المانعين لها، إن كان قبل هاء التأنيث حرف من هذه الحروف (حروف الاستعلاء) مع العين والحاء. أما الهمزة والهاء والألف فلها من توليد التفخيم نصيب يأتي من المخرج الحلقي وفراغاته المرنانة. وأما الكاف التي صنّفت حديثًا في المخرج الطبقي غالبًا، فلها منه – مع قربها من القاف – ما يولّد تفخيمًا ما. وكلّ هؤلاء لا بدّ فيه من التحليق كي تكتمل فيه عناصر التفخيم. أما قراءة الكسائي بإمالة الفتحة قبل هاء التأنيث مع وجود حروف الاستعلاء كلها، فلا تلغي كون هذه الحروف مستعلية بإجماع القرّاء والنحاة. وكذلك الشأن فيما يتّصل بالعين والحاء، ممّا أخذ به واختاره جلّة القرّاء، وهم من أهل العربية في الصميم.

* * *

المصادر والمراجع

أ- الكتب:

- أساسيات علم الكلام لبوردن وهاريس، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب وبيروت، د. ت.
- الأصوات في رواية حفص عن عاصم لأحمد مصطفى أبو الخير، الدار الفنية، القاهرة، ط. أولى ١٩٨٩م.
- أصوات اللغة لعبد الرحمن أيوب، مكتبة الشباب، القاهرة، ط. أولى ١٩٦٣م.
- الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة ١٩٧١م.

- الأصوات ووظائفها لمحمد منصف القماطي، دار الوليد، طرابلس (الغرب)، ط. ثالثة، ٢٠١٠م.
- التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) لسلمان حسن العاني، ترجمة ياسر الملاح ومراجعة محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ط. أولى، ١٩٨٣م.
- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث للطيب البكوشي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله بتونس، ط. ثالثة، ١٩٩٢م.
- التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر، ط. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٢م.
- التمهيد في معرفة التجويد للهمذاني العطار، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمّار، عمّان، ط. أولى ٢٠٠٠م.
- جهد المقلّ للمرعشي الملقب بساجقلي زاده، دراسة وتحقيق سالم قدوري الحمد، دار عمّار، عمّان، د. ت.
- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات لعبد البديع النيرباني، دار الغوثاني، دمشق، ط. أولى، ٢٠٠٦م.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٦م.
- الدرّ النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير للمالقي (ت٧٠٥هـ)، تحقيق محمد حسان الطيان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ط. أولى، ٢٠٠٦م، (قسم التحقيق).
- دروس في علم أصوات العربية لجان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية، ١٩٦٦م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المعارف، دمشق، ط. أولى، ١٩٧٣م.

- سرّ صناعة الإعراب لابن جني، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط. أولى، ١٩٨٥م.
- شرح شافية ابن الحاجب للأستراباذي (رضي الدين المتوفى سنة ٦٨٨هـ)، مع شرح شواهده لعبدالقادر البغدادي (المتوفى سنة ١٠٩٣هـ)، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف و محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة، ١٣٥٦-١٣٥٨هـ.
- شرح شافية ابن الحاجب في علمي التصريف والخط للخضر اليزدي (أتمّه سنة ٧٢٠هـ)، دراسة وتحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت، ط. أولى، ٢٠٠٨م.
- شرح المفصل لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، د. ت.
- شرح الهداية للمهدويّ (أحمد بن عمار المتوفى نحو سنة ٤٤٠هـ)، دراسة وتحقيق حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٥هـ.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د. ت.
- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم بإيران، ١٤٠٥هـ.
- الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها، للإمام نصر بن علي بن محمد المعروف بابن أبي مريم، المتوفى بعد سنة ٥٦٥ للهجرة، تحقيق عمر حمدان الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجّدة، ط. أولى، ١٩٩٣م.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- اللسانيات العامة واللسانيات العربية لعبد العزيز حليلي، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، ط. أولى، ١٩٩١م.
- مدخل إلى الألسنية ليوسف غازي، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق، ط. أولى، ١٩٨٥م.

- مرشد القارئ إلى معالم المقارئ لابن الطحان السماتي، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشير، عمان، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى، ١٩٩٩م.
- معجم علم اللغة النظري لمحمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت، ط. أولى ١٩٨٢م.
- الموضح في التجويد للقرطبي (عبد الوهاب بن محمد المتوفى سنة ٤٦١ للهجرة)، تقديم وتحقيق غانم قدّوري الحمد، دار عمّار، عمّان، ط. ثانية، ٢٠٠٩م.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، قدّم له علي محمد الضباع، وخرّج آياته زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ثالثة، ٢٠٠٦م.
- النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته للمرة الأخيرة علي محمد الضباع، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- الوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، بيروت، د. ت.

ب- البحوث:

- «إمالة ما قبل هاء التأنيث في قراءة الإمام الكسائي، نظرات جديدة في ضوء علم الأصوات الحديث» لطارق محمود سلمان خوالدة، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الثاني من العدد الثالث والثلاثين، د.ت.
- «علم الأصوات عند سيبويه» لأرتور شاده، نشر صبيح التميمي، مجلة آداب الرافدين، العدد (٥٨) لعام ٢٠١٠م (نسخة من الشابكة).
- «وجهة نظر جديدة في مخرج الأصوات الستة» لغانم قدّوري الحمد، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٧٧)، لعام ٢٠١٠م.

* * *